عين الرضى وعين السخط

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

هل صحيح ما يقول الشاعر أن عين الرضى عن كل عيب كليلة . . . لا أدرى فقد صار كل شىء يحيرنى ، وما من أمر إلا أرانى يبدو لى فيـه رأيان أو مذهبان لطول ما عودت نفسى أن أنظر إلى « الجانب الآخر » ، فلو أنى كنت قاضياً لظلت أحكامى تدور فى نفسى ولا يجرى بها لسـانى أو يخطها قلمى . وليس هذا من التردد ، فان من كان ضيق الصدر متنبه الأعصاب مثلى قلما يتردد . وما أكثر ما يؤثر الجزم والبت وإن كان فى شك من الصواب كبير . ولـكنما هذا من حب الموازنة والرغبة فى إنصاف كل جانب من جوانب الرأى . وقد قلت لنفسى وأنا قاعد أتدبر قول هـذا الشاعر القديم إن أعظم الرضى رضى المرء عن نفسه . أم ترى هذا ليس من الرضى . . لا أدرى أيضاً . . . وأخشى أن أظل لا أدرى فلا أخرج بشىء أبداً . . . ولو أنى أعطيت نفس إنسان غيرى لمـا قبلت ؛ ومع ذلك لا تخفى على عيوبى ونقائصى من مادية وأدبية ، ومن بدنية ونفسية أو عقلية ، فأنا أعلم أنى . . . . ولـكن هل من الضرورى أن أفضح نفسى وأهجوها إلى الناس . . . ومن دلائل الرضى عن النفس على الرغم من الاحاطة بعيوبها ، والفطنة إلى مواطن الضعف والنقص فيها أنى أستخف بهذه العيوب ولا أبالى أن أذكرها ، ولا أعبأ شيئاً إذا رأيت الناس يعرفونها كما أعرفها ؛ وإنى لأدرك بعقلى أنها نقائص ومذام ولـكنى أرانى أتخذ أحياناً من المبالغة بها مفخرة ومحمدة ، ولست أستخف بها فى الحقيقة ولـكنما أحاول تهوينها على نفسى حتى لا يكربنى أمرها ، ولأظل محتفظاً بحبى لنفسى ورضاى عنها وغرورى بها ، وحب النفس من حب الحياة

وتذكرت وأنا أقلب هـذا وأديره فى رأسى مقالا أو فصلا لأديسون الـكاتب الانجليزى المعروف — أم ترى لا يقرأه أبناء الجيل الجديد — يتصور فيه أن الله جلت قدرته أذن للناس أن يخلعوا ويرموا ما لا يرضيهم من أجسامهم ، فهذا رمى أنفه وذاك آخر ألقى أذنيه ، وأخرج الثالث عينيه وقذف بهما ، ونزع رابع ساقه وطرحها ؛ وهكذا حتى صارت الأعضاء والجوارح الرمية المزهود فيها كوماً عالياً . وعاد الله فأذن لهم أن ينتقى كل واحد من هذا الـكوم بديلاً ممـا زهد فيه ورماه فأقبلوا يقلبون ويبحثون وأخذ كل واحد ما أعجبه ووضعـه موضع العضو المنزوع ، ثم نظروا بعد ذلك إلى أنفسهم فلم يعجبهم حالهم ولم يرضوا عن أنفسهم واستبشعوا ما أخذوا بديلا مما نزلوا عنه فجأروا بالشكوى إلى الله تعالى وتوسلوا إليه أن يأذن فى أن يسترد كل منهم أعضاءه الأصلية . فتقبل الله دعاءهم رحمة منه بهم ، فما أسرع ما خلعوا ما استعاروا واستعادوا ما كانوا يسخطون عليه ويتبرمون به !

وهذه القصة الخيالية تدل على أن المرء لا يسعه إلا أن

القابض على السلطان ؛ ومعنى ذلك أن ستالين قد أضحى بقوة الدستور الجديد يشغل فى روسيا نفس المركز الذى يشغله موسولينى فى إيطاليا وهتلر فى ألمانيا ؛ وهذا النظام الذى يتوجه الدستور السوفيتى اليوم هو النظام الذى تعيش روسيا فى ظله منذ استطاع ستالين أن يجمع فى يده القوية كل مقاليد السلطة والحكم

وهذا هو محور النضال الذى يضطرم بين ستالين وخصومه ؛ وهذا هو السر فى تخوف الطاغية من كل حركة أو بادرة تدل على التذمر أو المقاومة ؛ ومنذ عام يجد ستالين فى مطاردة خصومه وكل من يخشى منهم منافسة أو مقاومة ؛ ولا تزال اجراءات القمع الدموية تجرى اليوم فى روسيا فى جميع دوائر الحكومة والجيش ، ولن تقف حتى يأمن ستالين كل معارضة وحتى يوقن أنه أخمد كل صوت وكل نزعة إلى المقاومة . ولـكن هل ينجح الطاغية فى هذه المهمة الفادحة ؟ هذا ما نشك فيه ؛ فروسيا البلشفية هى غير ألمانيا وإيطاليا ، ولن يستطيع كائن أن يخمد فى هذا المجتمع الروسى الذى عاش فى ظل الثورة عناصر النضال والثورة ؛ وقد تسفر الحوادث عما قريب عن نتائج وتطورات جديدة ؛ بيد أنها لن تكون على ما نعتقد سوى طور جديد من أطوار الثورة البلشفية

(***)

يفطن إلى حقيقة نفســه ، ولـكن إدراكه لعيوبه لا يمنع الحب والايثار . وأحسب أن من هنا ما يسمونه « مركب النقص » أى معالجة الانسان مداراة عيب يثقل على نفســه الشعور به ، ومحاولة تعويضه من ناحية أخرى ، والمقارنة والامتحان هما باب المعرفة ، ولا سبيل إلى هذا الذى يسمى « مركب النقص » إلا بعد المعاناة أى الامتحان والمقارنة ولو امتنعت أسباب المعاناة والمقارنة بينه وبين غيره لما شعر المرء بنقص فى نفسه أو فى بدنه ، ولما أحس الحاجة إلى مداراة النقص وستر العيب بالتماس الصحة أو القوة فى ناحية أخرى

وأرانى لا تخفى على عيوب أبنائى وهم أحب خلق الله إلى بعد نفسى كما لا أحتاج أن أقول فما أعدل بنفسى أحداً ، وما أكثر ماسمعت أمى رحمها الله تقول إذا رأتنى أشكو ألماً إنها تؤثر أن تكون هى المصابة ، وأحياناً كنت أسمعها تدعو الله أن يتوفاها قبلى فأنكر هذا عليها فى سرى وأعجب كيف يمكن أن يتمنى إنسان أن يموت قبل غيره . هذا إحساس لا أستطيع أن أدعيه . ولو أنى خيرت أن أموت قبل أولادى أو أن يموت أولادى قبلى لما رأنى أحد أتردد أو أتحير ، وربما أظهرت التردد نفاقاً وستراً للأنانية الصارخة ، ولـكن هذا لا يكون منى إلا نفاقاً وكذباً على الله والناس لا أكثر ولا أقل . وكثيراً ما سألت نفسى أترى الرجل غير المرأة ؟ وأنا أؤمن بأن أمى كانت مخلصة صادقة السريرة ، وقد كانت الدنيا كلها لا تعدل عندى قلامة ظفر من أصغر أصبع فى رجلها . فهل ترانى لو أن الأمر كان جداً لا تتردد فى إيثارى على نفسها ؟ من يدرى ؟ الرجل غير المرأة على التحقيق . . وشعور الأب غير شعور الأم ، هى حملته تسعة أشهر على قلبها فهى تحس أنه قطعة منها بالمعنى الحرفى لا مجازاً ، ومن أين يتأتى للرجل مثل هذا الشعور وهو لم يعان شيئاً ولا يدرى أكثر من أن امرأته جاءته بغلام أو بنت قد لا يكون له رغبة فيه أو فيها . فأنا أستطيع أن أصدق هذا الايثار من المرأة ، ولـكنى لا أستطيع أن أصدق أن يكون الرجل مثلها إيثاراً لابنه على نفسه — على الأقل فيما يمس الحياة — إلا إذا كانت نسبة عناصر الأنوثة فى نفسه كبيرة

ويحضرنى الآن بيت قلته من قصيدة نسيتها وأظنه كان ختام القصيدة وهو :

ألا ليتنى فى الأرض آخر أهلها فاشهد هذا النحب يقضيه عالمُ

وعيب البيت فى نظرى أن فيه مغالطة واضحة — على الاقل لى — ذلك أنى لا أتمنى أن أكون آخر من يبقى فى الدنيا لأرى كيف يفنى العالم ، بل لأنى لا أريد أن أترك الدنيا ، فاذا كان لابد من تركها والخروج منها ، فلتخرب قبلى أو فليكن موتى هو الايذان بخرابها وإمحاء هذا العالم كله . ولم أستطع وأنا أنظم البيت أن أختزل كل هذا فى شطر واحد فجاء البيت غير دقيق فى التعبير عن حقيقة ما فى نفسى

وقد أحببت مرات عديدة — لا عداد لها فى الحقيقة فانى أبدا كما قال فى الأستاذ العقاد :

« أنت فى مصر دائم التمهيد بين حب عفا وحب جديد »

والسبب فى ذلك أن عمر الحب عندى لا يطول إلا ساعة أو ساعتين أو ليلة أو ليلتين — إلى أن أمل والسلام — وما من واحدة أحببتها إلا تمنيت على الله أن يهبنى القدرة لأصلح بعض ما لا أرضى عنه فاملأ هذه الساق وأديرها ، وأعالج الترهل الذى يبدو لى فى الثديين مثلا أو الردفين ، وأصلح الأنف ، وأخفف النتوء الذى فى أرنبته ، وأرسم الحاجبين رسما جديداً يكون أقرب إلى ذوقى ورأيى فى التناسب ، وأعالج نفسها أيضاً فلاجى لبدنها وهكذا إلى آخره ، فما بى حاجة إلى الاطالة ، وليس هذا من الاعتراض على خلق الله سبحانه وتعالى .. حاشا وكلا .. وإنما هو من اشتهاء الكمال كما أتصوره ، ولا كمال فى الدنيا مع الأسف

وقد صدق الشاعر فى الشطر الثانى من بيته كما لم يصدق فى شطره الأول فما من شك فى أن عين السخط تبدى المساوى . وثم عيون أخرى عديدة تبدى المساوى غير عين السخط ، وفى وسعنا أن نتسامح مع الشاعر المسكين وأن نقول إنه يعنى بعين السخط عينا تبدى المساوى ، وأنه لم يرد القصر ولا التخصيص

وأسأل نفسى وأنا أكتب هذا الفصل : «ماذا أخطر ببالك هذا البيت؟» والحقيقة أنى لا أدرى سوى أنى أردت أن أكتب كلاما فحضرنى هذا البيت ، فما أكثر الكلام الفارغ وما أسرعه إلى اللسان

ابراهيم عبد القادر المازنى